مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد12/ العـدد:03(2024)، ص: 705-716

الغايات السياسية والاستعمارية للدراسات الاستشراقية، قراءة في موقف إدوارد سعيد

The political and colonial goals of Orientalist studies: A reading of Edward Said's position

لبنة بوزاهر[1]، د. بديع الزمان حوري[2]
[1] مخبر التنمية الاجتماعية وخدمة المجتمع، جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي (الجزائر)، lobna-bouzahar@univ-eloued.dz
[2] مخبر التنمية الاجتماعية وخدمة المجتمع، جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي (الجزائر)، houri-b.zamane@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2024/07/25 تاريخ القبول: 2024/09/12 تاريخ النشر: 2024/10/01

ملخص:

وإن كان ظاهر الدراسات الاستشراقية هو الاطلاع على حقيقة الشرق ودراسة علومه وآدابه ولغاته، واستقراء تاريخ الشرق بجوانبه المختلفة، إلا أن دراسات الاستشراق الجديد حملت في طياتها غايات ومقاصد لم يكن الخطاب الاستشراقي ليعلن عنها في صراحة، غير أنها ورغم ذلك كانت غاية الغايات لمثل هذه الدراسات، حتى أن عملية استقراء تاريخ الشرق والاحاطة بعلومه وثقافته كانت خادمة لهذه الغاية، وهو ما جعل الاستشراق يخرج من كونه علما إلى كونه آلية للسيطرة وفرض الهيمنة، فأصبح بذلك وسيلة لتبرير الاستعمار السياسي ومنحه الشرعية، من خلال خطاب مشبع بالكراهية والامبريالية.

هذا التوجه العنصري للاستشراق كان محور اهتمام الأديب والناقد إدوارد سعيد، الذي حمل على عاتقه مهمة تفكيك الخطاب الاستشراقي والكشف عن غاياته الاستعمارية وفضح الأغراض الحقيقية للمستشرقين الداعمين للاستعمار، وهو ما عملنا من خلال هذه الدراسة بمنهجها التحليلي على تسليط الضوء عليه محاولين

الوقوف على الموقف النقدي الذي تبناه سعيد في تحليله لغايات الاستشراق ومقاصده السياسية والاستعمارية، وبيان العلاقة بين المعرفة والسلطة.

كلمات مفتاحية: الاستشراق، الاستعمار، السياسة، الشرق، الغرب.

Abstract:

While the apparent aim of Orientalist studies is to gain knowledge of the East, study its sciences, arts, and languages, and explore its history, new Orientalism had undisclosed objectives. These studies ultimately aimed at control and domination, making the exploration of Eastern history and culture subservient to these goals. Consequently, Orientalism evolved from a science into a mechanism for justifying and legitimizing political colonialism through a discourse filled with hatred and imperialism.

This racist tendency was the focus of the attention of Edward Said, who took the task of dismantling Orientalist discourse, exposing its colonial goals, and unmasking the true purposes of the colonialist-supporting Orientalists. This is what we have worked on in this study, using an analytical approach to shed light on Said's critical position that and his analysis of the goals of Orientalism and its political and colonial objectives, and to clarify the relationship between knowledge and power.

Keywords: Orientalism, Colonialism, Politics, East, West.

***المؤلف المرسل:** لبنة بوزاهر

1. مقدمة

يتحدد موقف كل حضارة اتجاه غيرها من الحضارات من منطلقات الاحتكاك الحضاري الذي يرسم طريقة التعامل بينها، إما بالمواجهة والصدام، أو التقارب والحوار، وإن كان هذا الاحتكاك ضرورة يفرضها الواقع الاجتماعي والثقافي والانفتاح على الآخر فهو في الغالب لا يسير في مسار واحد بل إن منطلقاته هي التي تحدد النتيجة التي يمكن أن تنتهي إليها العلاقات. وانطلاقا من ذلك تعتبر العلاقة بين الشرق والغرب أحد أكثر الثنائيات الفكرية تعقيدا، وهي في الغالب علاقة تسير في منحى الصدام

والصراع والفوقية والسعي لفرض الهيمنة، معبرة بذلك عن علاقة القوي بالضعيف كما يراها الغرب الذي يسعى من خلال جملة من الاستراتيجيات والوسائل لفرض السيطرة على الشرق.

والحديث عن وسائل الغرب في السيطرة وفرض الهيمنة على الشرق يقودنا للحديث عن الاستشراق باعتباره أحد أهم الآليات والوسائل التي عمل المفكرون من خلالها على تعبيد طريق السيطرة الغربية على الذات الشرقية، من خلال خطابات جاهزة ونمطية تحمل إيديولوجية الغرب وتمنح الاستعمار السياسي الشرعية، عن طريق تصوير الشرق كفاقد للأهلية، يحتاج من يقود زمام أموره، وبالتالي فإن الغاية العلمية والأكاديمية للدراسات الاستشراقية، لم تكن سوى واجهة تختفي وراها جملة المقاصد السلطوية والاستعمارية لمثل هذه الدراسات.

وحديثنا عن الاستشراق يحيلنا بالضرورة لتسليط الضوء على أحد أهم الناقدين والمثقفين الذين رأوا في الخطابات الاستشراقية المؤدلجة جملة من الغايات الخفية التي حملها منهج متحايل ينبغي العمل على كشفه وتفكيكه، منهج غرضه الاستيلاء على الشرق وفرض الهيمنة السياسية عليه، وهو ما سعى إليه الأديب والناقد الفلسطيني- الأمريكي إدوارد سعيد، الذي رأى من واجبه كباحث ومثقف بعيدا عن انتمائه، أن يقف على حقيقة ما حملته الخطابات الاستشراقية المتحاملة على الشرق وعلى الإسلام، مؤسسة لفكر عرقي متعصب استقر في العقل الأوروبي وأصبح يرى الشرق من خلاله، معطية بذلك كل المبررات المشروعة للاستعمار السياسي، التي عمل سعيد على بطلان مشروعيتها وبيان تزييفها وفضح العلاقة بين السلطة والمعرفة.

وجدير بالذكر هنا القول بأننا لسنا أمام حقائق يمكن تعميمها، لأن الاستشراق لم يكن واحدا لدى جميع المفكرين الذين اهتموا بقضايا الشرق، فلم يحمل جميعهم ذات الغايات، ولم تكن لجميعهم ذات البواعث، بل نحن في هذه الدراسة نسلط الضوء على ذلك الصنف من المستشرقين الذين عملوا على خدمة الغايات الاستعمارية الغربية للشرق، من خلال منهج محكم التخطيط تكون فيه المعرفة خادمة للسلطة.

1.1. الإشكالية:

تثير هذه الدراسة إشكالية حاولنا الإجابة عليها من خلال ما قدم في مباحثها، وتتعلق أساسا بالدراسات الاستشراقية غير الموضوعية، ودورها في تكريس الغايات السياسية للدول الاستعمارية وإعطاء الشرعية للاستعمار السياسي، وموقف إدوارد سعيد من هذه الدراسات وتحليل غاياتها ومنطلقاتها ووسائلها. **فكيف ساهمت الدراسات الاستشراقية في تكريس الغايات السياسية والاستعمارية للغرب وإعطائها الشرعية؟ وما هو موقف إدوارد سعيد من ذلك؟**

1.2. منهج الدراسة:

اعتمدنا في دراستنا هذه على المنهج **التحليلي** الذي عمدنا من خلاله إلى تحليل موقف إدوارد سعيد من الخطاب الاستشراقي الحامل لدعوات استعمارية وامبريالية، إضافة إلى المنهج **النقدي** الذي تناولنا فيه هذه الدعوات بالنقد والتعقيب والمناقشة.

1.3. أهداف الدراسة:

لعبت الدراسات الاستشراقية المظللة دورا بارزا في بلورة العلاقات بين الشرق والغرب، وهو ما جعل الاستشراق كعلم غايته دراسة الشرق والإلمام بعلومه وآدابه ولغاته وفنونه وثقافته معتقداته، يحظى بمكانة هامة جدا في ميادين الأدب والفلسفة والفكر بصورة عامة، وبالتالي تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على دلالات الاستشراق عند ثلة من المفكرين وعلى رأسهم الناقد الفلسطيني- الأمريكي إدوارد سعيد، وعمله على تفكيك الخطابات الاستشراقية الساعية لفرض الهيمنة والسيطرة على الشرق وإعادة تشكيله، وبالتالي العمل على تحليل موقفه منها، وكذا تحليل الغايات السياسية والاستعمارية التي سعى الاستشراق في شقه المغرض إلى تكريسها ومنحها الشرعية من خلال خطابات مؤدلجة وذاتية، إضافة إلى البحث في الوسائل التي كرس من خلالها الغرب هذه الغايات وعمل على ترسيخها في أذهان المتلقي الغربي بهدف الكشف عن خطاب الكراهية الذي تحمله كثير من الكتابات الاستشراقية، والوقوف على أسسه وغاياته ومنطلقاته.

2. الإطار المفاهيمي للدراسة:

1.2. مفهوم الاستشراق:

يحمل الاستشراق عدة دلالات تبعا لغاياته وأهدافه، تتفق جميعها في كونه علما يهتم بدراسة الشرق واستقراء تاريخه والإحاطة بعلومه ولغاته وثقافته. حيث يعرفه محمود حمدي زقزوق بأنه: «علم الشرق، أو علم العالم الشرقي» (زقزوق، 1989، صفحة 18). وفي تعريف آخر: «هو ذلك العلم الذي تناول المجتمعات الشرقية بالدراسة، والتحليل من قبل علماء الغرب» (ساسي، صفحة 20)

أما عن مفهوم الاستشراق عند إدوارد سعيد فهو يحمل العديد من الدلالات، حيث نجده في كتابه الذي صنع شهرته: "الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء" والذي صدرت النسخة الأولى له سنة 1978، يورد عدة دلالات للاستشراق، بداية من كونه تخصصا جامعيا يعنى بدراسة الشرق ككل والكتابة عنه من جميع النواحي، سواء من الناحية الأنثروبولوجية وأصل الإنسان الذي يسكن الشرق وصفاته وخصائصه البيولوجية، أو من الناحية الاجتماعية وشكل العلاقات والنسيج الاجتماعي في بلاد الشرق، أو من الناحية التاريخية التي تُعنى بتقصي ماضي الشرق والمحطات الأساسية التي شكلت هويته الحالية، أو من الناحية الفيلولوجية اللغوية، وتبعا لذلك «فكل من يقوم بتدريس الشرق، أو الكتابة عنه أو بحثه-ويسري ذلك سواء أكان المرء مختصا بعلم الانسان "أنثروبولوجي"، أو بعلم الاجتماع، أو مؤرخا، أو فقيه لغة "فيلولوجياً"- في جوانبه المحددة والعامة على حد سواء، هو مستشرق» (سعيد، 2010، صفحة 38). وهذه الدلالة الأولى للاستشراق عند إدوارد سعيد تعبر عن جوهر حركة الاستشراق التي عرفت بالاستشراق الكلاسيكي الذي جاء في الأساس لغايات علمية أكاديمية تتقصى حقيقة الشرق وهويته وعلومه وآدابه ولغاته.

ورد في ذات المؤلف دلالة أخرى للاستشراق عند إدوارد سعيد انطلاقا من قوله: «أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي "أنطولوجي" ومعرفي "إبستيمولوجي" بين الشرق و(في معظم الأحيان) الغرب» (سعيد، 2010، صفحة 38)، وهو بذلك يعتبر أن الاستشراق إضافة لكونه مبحثا أكاديميا وتخصصا جامعيا، إلا أنه يحمل دلالة أخرى فكرية وإيديولوجية، تجعل الغرب ينظر إلى ذاته من خلال رؤيته الإيديولوجية

للشرق انطلاقا من الوعي بالمغايرة والتميز الأنطولوجي الذي يجعل الأنا الغربية في مقابل الآخر الشرقي، فكل تخلف للذات الشرقي يعني تقدم الذات الغربية، وكل جهل ورجعية للشرق معناها تطور الغرب واتساع معارفه.

أما عن الدلالة الثالثة والتي نجدها في ذات الكتاب لسعيد وأظنها الدلالة التي بنى دراساته النقدية للاستشراق على أساسها، وهي الدلالة ذات الصلة المباشرة بموضوع دراستنا هذه، حيث يقول: «الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق، واستبنائه، وامتلاك السيادة عليه» (سعيد، 2010، صفحة 39)، وهنا يعتبر سعيد أن الغاية من دراسة الشرق والاطلاع على مكوناته الحضارية والإلمام بعلومه وآدابه ولغاته ... إلخ، ماهي إلا آلية لإصدار أحكام جائرة على الشرق تجعل السيطرة عليه والرغبة في استعماره أمرا مشروعا، وله مبرراته، وهي في الحقيقة مجرد ذرائع تصور الشرق فاقدا للأهلية ولتسيير أموره ما يجعل السيطرة عليه ضرورة وحتمية يستدعيها واقع الشرق وأحواله.

نخلص من خلال الوقوف على دلالات الاستشراق خاصة لدى الناقد إدوارد سعيد، إلى أن الاستشراق ذو ثلاثة أبعاد: أكاديمي، عرقي، استعماري، فمن ناحية يعبر عن آلية ثقافية وعلمية هدفها تحقيق الانسجام والاحتكاك بالشرق من خلال الوقوف على مكوناته الحضارية: الثقافة، الدين، اللغة، الأدب، العلوم ... الخ، غير أن هذه الدراسات تتشبع بجملة من الرواسب الفكرية والإيديولوجية التي تحصر الشرق في قوالب جاهزة وتختزل هويته في سرديات ثابتة بغرض بيان تقدم الغرب وازدهاره فكريا واقتصاديا وعلميا انطلاقا من تخلف الآخر الشرقي المقابل. إضافة لكون هذا العلم لا يخلو من غايات سلطوية استعمارية، كانت بوادرها مع الاستشراق الكلاسيكي في شقه الذي انصب على الاهتمام بالجانب الديني، وسرعان ما تحول الأمر إلى رفض الآخر انطلاقا من الاختلاف الديني والعقائدي، وعليه امتلاك الرغبة في ضمه إلى المجتمع المسيحي، ورفض الإسلام كدين وتشويه حقيقته باعتباره منطلقا للجهل والعنف والتطرف الذي يعيشه الشرق، ويمكن القول بأنها كانت المنطلقات التي ساهمت بشكل مباشر في تغذية الدوافع الاستعمارية الغربية اتجاه الشرق.

2.2. غايات الاستشراق:

أ. الغاية الدينية التبشيرية:

كان الهدف الديني في مقدمة الأهداف التي شكلت باعثا للفكر الاستشراقي، الذي سعى من خلاله جملة من المستشرقين إلى دراسة الشرق لا بهدف الاطلاع والاحتكاك وبناء المعرفة، بقدر ما كان الهدف الأساسي هدفا دينيا يخدم انتماء المستشرق ومعتقده سواء كان يهوديا أو نصرانيا أو ملحدا أو علمانيا. وإن كان بعض المستشرقين اليهود رأوا في الاستشراق وسيلة خادمة للدين اليهودي، ومن الملحدين والعلمانيين من عملوا على بعث الفكر الإلحادي والعلماني في الشرق المسلم، إلا أن من سعى بقوة لتحقيق هذا الهدف هم طائفة المستشرقين المتعصبين ممن ينتمون إلى المسيحية ويرون في الإسلام خطرا يجب محاربته وإيقاف انتشاره. فلقد كان الإسلام العدو الأكبر للمسيحية منذ العصور الوسطى، وتجسد العداء الديني بين الشرق والغرب بوضوح في الحروب الصليبية التي استمرت قرنين من الزمن، «وبطريقة أو بأخرى تواصل هذا المزيج من الفزع والعداء حتى يومنا هذا في الانتباه البحثي وغير البحثي المنصب على إسلام يرى منتميا إلى جزء من العالم (هو الشرق) يوضع موقع النقيض ضد أوروبا والغرب على الصعيد التخييلي والجغرافي والتاريخي» (سعيد، 1996، صفحة 119) وإن كانت الحروب الصليبية انتهت تاريخيا فهي لم تنته حقيقة بل ظلت تعيش في نفوس الغربيين المتحاملين على الدين الإسلامي وعلى النبي محمد ﷺ، الذي كان -ولازال لدى البعض- يوصف بأوصاف مظللة وزائفة تجعله شخصا غارقا في الشهوانية والخداع، وظلت هذه الأوهام والشائعات عالقة في الذهن الغربي، فأنشأت بذلك فكرا استشراقيا متعصبا غايته محاربة الإسلام وإضعاف قوة المسلمين والتبشير بالنصرانية. وبالتالي فقد انصبت جهود طائفة كبيرة من المستشرقين النصرانيين من أمثال: جيوم، أندرسون، لامانس ... وغيرهم، في بداية الحركة الاستشراقية بالسعي وراء غايات دينية، فكان الهدف وراء دراسة الشرق ولغاته وثقافته هو تحقيق المعرفة الكافية حوله والتي من شأنها أن تسهل عملية التبشير التي تشرف عليها الارساليات النصرانية، فكان الإلمام بلغات الشرق أحد أهم الوسائل التي عمل المستشرقون على امتلاكها لمخاطبة الشرقيين بلغتهم وبيان فساد

دينهم، وتشويه حقيقة الإسلام وإدخال الشك في نفوس المسلمين ببطلان الحقائق الدينية التي جاء بها الإسلام وما يتصل بها من علوم وآداب، بهدف الحد من انتشار الإسلام، فكانت المؤسسات التعليمية الغربية المؤدلجة بفكر استشراقي متعصب خادمة لمثل هذه الأغراض حيث تحدث عبد الكريم عثمان في مؤلفه: "معالم الثقافة الإسلامية" عن الحضارة الغربية التي تستخدم المؤسسات التعليمية لأغراض دينية عنصرية متحاملة ضد الإسلام حيث يقول:« تعمل في الوقت نفسه على إظهار الإسلام بما ليس هو على الحقيقة وطمس معالمه الصحيحة وتشويه مبادئه المثالية، ويقوم بهذه المهمة عادة من يسمون بالمستشرقين» (عثمان، 1992، صفحة 99)

ب. الغاية العلمية:

يمكن القول بأن الهدف العلمي للاستشراق وحب الاستطلاع كان الدافع الأول لطائفة كبيرة من المستشرقين، على الأقل في بداية الحركة الاستشراقية، فانصبت الجهود على زيارة الشرق (تركيا، سوريا، مصر ...)، وتعلم لغاته والأخذ من حضارته، والانكباب على ترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأجنبية في شتى المجالات حتى يتسنى للحضارة الغربية أن تستفيد من التجربة الشرقية، ومن التراث الإسلامي بالتحديد، ونلمس ذلك من خلال الاهتمام بترجمة كتب الحديث والتفسير، فزاد الانبهار بالحضارة الإسلامية وبتعاليم الإسلام ومدى ارتباطها بواقع الإنسان. فلقد كان الغرب يرون في الشرق مهد الحضارة والتطور -وإن كانوا قد أنكروا ذلك لاحقا- وبالتالي فقد كانت رغبتهم في اللحاق بركب الحضارة والعلم لن تتحقق إلا بالتوجه إلى موطن العلم والتشرب منه، وكان ذلك واضحا كونهم لم يتركوا مجالا من مجالات العلم أو الأدب أو الدين إلا وانكبوا على ترجمة أمهات الكتب فيه، حتى أن كثيرا من الباحثين من يدينون للعرب والمسلمين فيما امتلكه الغرب لاحقا من العلم والمعرفة والتطور، كون العلم ومناهج البحث الحديثة لم تكن لتدخل أوروبا لو لم تكن قد أخذتها عن العرب والمسلمين.

لقد كان الأثر بالغا في نفوس فئة كبيرة من المستشرقين الذين أدركوا حقيقة الإسلام والشرق، وما استطاع أن يصل له هذا المجتمع من تطور وحضارة في فترة ما،

فكانت كتاباتهم موضوعية منصفة للشرق غير مشوهة للحقيقة، حتى أن البعض منهم انصرف لدراسة الإسلام ليس من باب حب الاستطلاع فقط بل بهدف تغيير دينه والانتماء لمجتمع المسلمين، إلا أن ذلك لم يكن في مصلحة المستشرق لأن مجرد عدم تحيزه وجديته في البحث وتحري الدقة وعرض الحقائق كما هي، كان كافيا لتهميش أعماله وحرمانه من جملة الامتيازات المادية والمعنوية التي يحظى بها غيره من المستشرقين الذين تربطهم علاقات وثيقة بالسلطة وما تبتغيه، ويعتبر عمر عودة الخطيب أن هذا هو السبب وراء ندرة المستشرقين المنصفين لحقيقة الشرق، لأن مجرد ابتغاء الدقة وتحري الموضوعية يضع المستشرق أمام حقيقة أن أعماله التي لا تجد قبولا في أوساط المتعصبين لن تحظى بالدعم المادي حيث يقول في ذلك: «لأن أبحاثهم المجردة من الهوى لا تلقى رواجا عند رجال الدين، ولا عند رجال السياسة، ولا عند الكثرة المتعصبة من القراء المسيحيين. ومن ثمّ فهي لا تُدرّ ربحا ولا مالا، ولهذا ندر وجود هذه القلة في أوساط المستشرقين» (الخطيب، 1979، صفحة 197)

ج. الغاية الاقتصادية والتجارية:

إن الاهتمام الكبير الذي أولاه الغرب لدراسة دول الشرق وبناء المعرفة حولها، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يقتصر على غايات علمية بحتة أو حتى دينية تبشيرية فقط، بل إن ما يمكن أن يكون سببا وجيها لتوجه الغرب اتجاه الشرق مستعينا في ذلك بالحركات الاستشراقية، هو أنه يرى في الشرق موقعا استراتيجيا ومرنا لمستثمراته المادية، ورقعة جغرافية غزيرة الثروات، وفي ذلك يقول سعيد: «الاستشراق ليس استيهاما أوروبيا فارغا حول الشرق، بل إنه لجسد مخلوق من النظرية ولتطبيق ما برح، لأجيال عديدة، موضعا لاستثمارات مادية كبيرة» (سعيد، 2010، صفحة 42)، وهو ما يجعل الغايات الاقتصادية أحد أهم البواعث التي تقف وراء الاهتمام بالفكر الاستشراقي، وإن كانت هذه الغاية لن تتحقق بمجرد الاحتكاك بالشرق والاستفادة من خيراته، بل تستلزم في ذلك فرض الهيمنة السياسية على الشرق بما يسهل عملية امتصاص الخيرات ونهب الثروات، وهو ما يجعل الهدف السياسي وثيق الصلة بالهدف الاقتصادي بل أنه خادم له ومحقق لأغراضه.

لقد كانت أوروبا التي تعيش بوادر نهضتها الصناعية والحضارية، في حاجة إلى المواد الأولية التي تعتبر محركا لجميع النشاطات الصناعية، إضافة إلى حاجتها لوجهة تسويقية تعرض فيها منتجاتها وسلعها، هو الأمر الذي دفع رجال الأعمال وأصحاب المصانع للبحث عن البلاد التي يمكن أن تلبي حاجاتهم الاقتصادية مستعينين في ذلك بما توصلت إليه الدراسات الاستشراقية من نتائج حول المجال الاقتصادي للشرق الإسلامي ولدول إفريقيا وآسيا (احمامو، 2018، صفحة 150)، وبذلك ساهم الاستشراق بشكل كبير في تسليط الضوء على الجانب الاقتصادي للشرق باعتباره وجهة جيدة للغرب يمكن الاستفادة منها في التجربة الحضارية التي تسعى أوروبا لدخولها، إما بنهب الثروات أو الحصول عليها بأبخس الأثمان، كما أن الأسواق الشرقية كانت مقصدا للعديد من الرحلات التجارية الغربية لعرض البضائع والتسويق لها، والقيام بالاستثمار في الشرق، من خلال دراسة الواقع الاجتماعي والاقتصادي الشرقي ومعرفة ما يفضله الشرق وما يحتاجون إليه كسلع يمكن للغرب أن يوفرها ويعرضها في أسواق الشرق الإسلامي وإفريقيا وآسيا.

من ناحية أخرى، كانت الغاية الاقتصادية من الاستشراق غاية فردية لكثير من المستشرقين، الذين رأوا في الاستشراق مجالا خصبا للكسب المادي، خاصة في مرحلة اشتد فيها الاهتمام بالشرق والكتابة عنه وتقصي علومه وآدابه والرغبة في تعلم لغاته، وفي ظل ما كانت تخصصه العديد من الدول من ميزانية لدعم الدراسات الاستشراقية، فقد كانت مهنة المستشرق فرصة جيدة لأولئك الذين ضاقت بهم سبل العيش، خاصة وأن مجال الاستشراق ليس مجالا يكثر فيه التنافس كغيره من المجالات، كون البحث الاستشراقي ليس بالأمر السهل الذي يمكن أن يمتهنه من أراد.

د. الغاية السياسية الاستعمارية:

لم يكن الاستعمار السياسي غاية الاستشراق الكلاسيكي الذي انصبت فيه جهود المستشرقين على هدفين أساسيين وهما الهدف العلمي والهدف الديني، فكانت الكنيسة هي المهد الأول للحركة الاستشراقية التي كان الاهتمام الأول فيها منصبا على توسيع حدود الكنيسة وإيقاف المد الإسلامي، «والواقع أن النفس المسيحية في خارج

إطارها، أعني في صلاتها الواقعية بالعالم الإسلامي، تنقلب إلى نفس مستعمرة» (بن نبي، 1986، صفحة 47)، وبذلك لم يكن تحقيق الغاية الدينية التبشيرية خاليا من عمليات الاعتداء والحملات العسكرية ذات الطابع الديني والهدف التنصيري، فكانت بعض الارساليات التبشيرية تمارس ضغطها وهيمنتها على الشعوب التي تقصدها بهدف التبشير، وبعضها الآخر يلجأ لاستراتيجيات سياسية تضمن التبعية الشرقية للغرب من خلال إرساليات التبشير التي عملت على تأسيس جمعيات خيرية وبناء المستشفيات والملاجئ والمدارس.

لقد بدأت النوازع الأولى للهدف الاستعماري، مع التغير في نمط الكتابات الاستشراقية، من كتابات ذات توجه ديني إلى كتابات ذات توجه عرقي عنصري، ولعل أحد أهم رواد هذا التوجه كان المستشرق الفرنسي إرنست رينان (E. Renan 1823-1892)، الذي غرس في الذهن الغربي فكرة التمييز العرقي بين الجنس الآري والجنس السامي، وإن كان في الحقيقة ليس الباعث الأول لمثل هذه الاعتقادات ذات التوجه المتعالي، بل إننا نلمسها بوضوح في الفكر اليوناني وسنشير لذلك لاحقا، غير أن الكتابات الاستشراقية التي تلت ذلك كانت قد غذت النظرة العنصرية اتجاه الآخر المختلف ثقافيا وعقائديا، ونتيجة لذلك نشأت الرغبة لدى أوروبا في استعمار دول الشرق متخذة من الهدف الاقتصادي دافعا وراء ذلك، ومن الهدف العلمي خادما لهذه الغايات السياسية والاستعمارية مزودا إياها بالمعلومات الكافية حول الدول التي كانت تنوي فرض الهيمنة عليها وبسط نفوذها فيها.

إن الهزيمة التي لحقت بالغرب في الحروب الصليبية مع المسلمين، ظلت تشتعل في صدور الأوروبيين لعقود من الزمن، هذه الهزيمة التي أراد الفكر الاستشراقي أن ينتقم لها من خلال التوجه نحو بلاد الإسلام ورسم المعالم الصحيحة للعملية الاستعمارية، إضافة إلى العمل على صناعة الكراهية بين الطوائف المسلمة، لإضعاف العصبية في الشرق المسلم بما من شأنه أن يجعل منه هدفا سهلا للحملات الاستعمارية الأوروبية، حتى أن كثيرا من المستشرقين شغلوا مناصب لدى المؤسسات الامبريالية سواء في الجامعات أو مراكز البحث حول الشرق. فكانت جميع

دراساتهم تنصب على دراسة الشرق لغة وتاريخا وموقعا واقتصادا، وجميعه يصب في هدف واحد وهو الاستعمار السياسي. (احمامو، 2018، الصفحات 152-154)

3. دور الاستشراق في تعزيز الاستعمار السياسي وتحديد منطلقاته

إن الحركة الاستشراقية عرفت تطورا تدريجيا من كونها في البداية تعبر عن توجه فكري ومعرفي بحت يتصف بالنزاهة والموضوعية في دراسة الشرق، والإحاطة بمكوناته الثقافية بهدف التكامل الحضاري، لكن سرعان ما اكتسب الاستشراق صبغة إيديولوجية فرضت تأثيرها على المستشرق وعلى نتائج بحثه، فتحول بذلك إلى توجه استعماري يرتبط ارتباطا مباشرا بغايات استعمارية سياسية استيلائية لدول الشرق، تتغذى بخلفيات كنسية لاهوتية مناهضة للشرق وللإسلام على وجه التحديد. (الهادي، 2024، صفحة 01)، حيث حظيت الدراسات الاستشراقية بأهمية بالغة، وبأولوية كبيرة لدى دول الاستعمار في سعيها لفرض الهيمنة والسيطرة على الشرق، ولعل هذا يعود للدور الذي تلعبه هذه الدراسات في إعطاء الاستعمار السياسي شيئا من المشروعية من خلال خطاب استشراقي جاهز يصور الشرق باعتباره فاقدا لأهلية تسيير أموره، غارقا في الخيال والروحانيات بعيدا عن الواقع، متشبثا بدين يرفض العلم ويحاربه، وبالتالي فإن تلك التوصيفات الجاهزة والنمطية التي يتسم بها الشرق في أدبيات المستشرقين من شأنها أن تمنح الاستعمار السياسي الشرعية في فرض هيمنته على الشرق في المتخيل الغربي.

يتضح لنا أن الاستشراق كعلم هو في حقيقته الواجهة أو الخلفية الفكرية للصراع بين الشرق والغرب ولتكريس الاستعمار السياسي الغربي على الشرق، وهو الأمر الذي أخرج الاستشراق عن أهدافه الأساسية باعتباره علما يستهدف دراسة هوية الشرق ومكوناته الحضارية، إلى آلية استعمارية، وهو ما أفقده مصداقيته وموضوعيته كعلم فـ«عندما يعمد الغرب إلى التعرف إلى الشرق "الاستشراق" بدافع استعادة المستعمرات، وإعادة التمدد المسيحي، فمن الطبيعي ألا تكون دراسته هذه واقعية، أو حيادية. وإنما الهدف، والغاية منها هي العثور على الخواصر الرخوة في الشرق، ومن الطبيعي لا تكون هذه الغاية علمية، ولا واقعية. [...] لقد كان الدافع

التبشيري، وتنصير المجتمعات الشرقية أهم عنصر لترجمة القرآن، ولكتب العربية» (فوك، 2001، صفحة 14، 15)

أما عن السياسيات التي تم انتهاجها لتحقيق هذه الغاية السياسية والاستعمارية التي يقودها فكر استشراقي امبريالي، هي أن الدول الاستعمارية عملت على إدراج الدراسات الاستشراقية في المناهج الأكاديمية، إضافة إلى تأسيس مراكز علمية متخصصة في دراسة حضارة الشرق وعلومه ولغاته وديانات وتخصيص ميزانيات كبرى لدعم هذه الدراسات، وذلك بالنظر إلى الدور الكبير الذي تلعبه المؤسسات التعليمية وخاصة الجامعات في احتضان الفكر الاستشراقي وفي غرس أهدافه وغاياته في عقول الطلبة. وهو ما يساهم بشكل مباشر في تزكية المطامع الاستعمارية ورسم معالمها بدقة انطلاقا من دوافع تمنح هذه الحركة كل المبررات الكافية والتي يمكن الحديث عن أهمها باعتبارها منطلقات أساسية غذّت الحركة الاستعمارية التي ما فتئت الدراسات الاستشراقية تمهد الطريق لها وأهمها ما يلي:

1.3. المركزية الغربية:

إن الحديث عن المركزية الغربية هو حديث عن عقدة الفوقية التي عانى منها الفكر الغربي من قرون واستقرت في العقل الأوروبي بالتحديد، فالغرب يرى أنه هو "الأنا" وأنه محور الكون الذي تدور حوله الأحداث وأنه الفاعل الأول في مسارها، وأن مستقبل البشرية جمعاء مرهون بالتجربة الغربية، وبالتالي فإن ما عدا الغرب وحضارته يوصف بـ"الآخر" الذي لا يمكن أن يكتسب قيمة مساوية للأنا الغربية، بل الآخر هو البربري المتوحش وهو بذلك يكسب الغرب الاعتراف بتفوقه واستعلاءه من منطلق أن كل رجعية وتخلف للآخر الشرقي هو في الوقت ذاته إقرار برقي وتطور الأنا الغربية. وهو ما جعل الحضارة الغربية تتجه نحو الانفصال عن الحضارات الأخرى وبقية الإنسانية التي ترى فيها كيانات محتقرة، تتخذها أوروبا وسائل لبلوغ مجدها وتحقيق ذاتها بإثبات أن هذه الكيانات هي كيانات ضعيفة متخلفة لاأخلاقية. ولا يمكن الحديث عن النزعة الفوقية والتمييز بين الأجناس ولا نعرج للحديث عن رائد هذه النزعة المستشرق والمؤرخ الفرنسي إرنست رينان، فنجد مالك بن نبي يورد مقولة ينسبها لرينان جاء فيها ما يلي: «جنس واحد يلد السادة والأبطال هو الجنس الأوروبي»

(عثمان، 1992، صفحة 89)، ويقصد به الجنس الآري الذي تنتمي له شعوب الغرب، وهو جنس يمتاز -حسبه- بالعبقرية والقدرة على الابداع، في مقابل الجنس السامي الذي تنتمي إليه شعوب الشرق والذي يمتاز بالبساطة وبمحدودية التفكير وعدم القدرة على الابداع سوى في مجال الأدب والشعر والأساطير.

عملت الدراسات الاستشراقية من خلال خطاباتها على تعزيز مدى رقي وتطور الغرب المسيحي حضاريا وثقافيا واقتصاديا، في مقابل ما يواجهه الشرق الإسلامي من رجعية وتخلف وبدائية، وعن ذلك يتحدث الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي: «الاستشراق في منطقه المتعالي ينسجم تماما مع نظرة الاستعلاء والعنصرية الغربية... فالغرب كان -منذ الاغريق والرومان وحتى اليوم- يرى نفسه معدن الحضارة، ومركز العالم، والجدير بالسيطرة والتفوق... يرى نفسه السيد والشعوب الأخرى همجا وبرابرة أو حتى رقيقا» (الشرقاوي، صفحة 178)، وتعود جذور هذه النظرة الاستعلائية للذات الغربية اتجاه كل ما هو غير غربي إلى قرون غابرة، فبالعودة إلى الفكر اليوناني نجد هذا التمييز كان قائما في كتابات أفلاطون وتلميذه أرسطو، اللذين اعتبرا أن اليونانيين من جنس أرقى من البرابرة والأفارقة، وأنه من الأجدر شن الحروب عليهم وقتالهم لأنهم من مرتبة أدنى من الطبيعية البشرية، ونجد أفلاطون أيضا يضع قواعد جمهوريته على أساس تمييز بين طبقات المجتمع، مؤكدا على التفاوت الطبيعي بين البشر، ونجد ذات الفكر العنصري والعرقي الاستعلائي يستمر في الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر مع نيتشه وكذا داروين وغيرهم ممن تأصلت في أذهانهم حقيقة أن الذات الغربية أرقى من غيرها من الشعوب.

وفي ذلك يرى إدوارد سعيد أن التفوق الأوروبي نابع من أن الثقافة الأوروبية متسلطة داخليا وخارجيا، إضافة إلى أن الأفكار الأوروبية متسلطة على الشرق، من منطلق التحضر والتقدم الذي تعرفه أوروبا مقابل التخلف الذي يعاني منه الشرق، معتبرا أن الشرق لم يقاوم الهيمنة الغربية منذ أواخر عصر النهضة، هذه الهيمنة والمركزية التي كانت المنظار الذي ينظر من خلاله الغرب للشرق الذي تختفي لديه كل مظاهر المقاومة والرفض للهيمنة الغربية، وللصورة النمطية التي رسمها الغرب

للشرق. (سعيد، 2010، صفحة 42) وهو ما جعل كل محاولة للشرق للخروج عن هيمنة الغرب، أو الاستفادة من التجربة الغربية واستثمارها في الولوج إلى مراحل التطور التي مر بها الغرب، تجعل هذا الأخير يتجند للانتقام كما يحدث مع إيران في محاولتها امتلاك الأسلحة النووية.

نجد أن مظاهر الفوقية الغربية تجسدت حتى على المستوى الديني، من خلال اعتبار القيم الدينية المسيحية هي الأعلى والأصوب وما دونها باطل، فكان الأستاذ الفرنسي والمبشر في قسم الشؤون الشرقية في وزارة المستعمرات الفرنسية يقول: «إن الطلاب الشرقيين الذين يأتون إلى فرنسا يجب أن يلونوا بالمدنية المسيحية» (خالدي و فروخ، 1953، صفحة 89) وبذلك عملت الحملات الدينية النصرانية بإشراف وتوجيه من الحركة الاستشراقية على السعي لطمس تعاليم الدين الإسلامي وبيان بطلان حقائقه وإلحاق الهوان بالعقيدة، في مقابل بيان عظمة القيم الدينية المسيحية «وقد كان هدف المستشرقين من دراساتهم إضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من جانب، وإثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب آخر، وإظهار أي دعوة إلى التمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتخلف» (عثمان، 1992، صفحة 99)

2.3. الإسلام:

لقد كان الإسلام كدين وأسلوب حياة -من وجهة نظر استشراقية- منطلقا أساسيا ودافعا من دوافع الاستعمار السياسي، فلقد كان منذ قرون غابرة العدو الأول للغرب المسيحي، هذا العداء الذي اشتد بعد الهزيمة التي لحقت بالغرب في الحروب الصليبية، وتأصل في نفوس الغربيين حتى أصبح جزءا من تكوينهم، وهنا نشير إلى اعتراف الطبيب والمؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون (G. Le Bon 1841-1931) في ختام دراسته للحضارة العربية الذي جاء فيه ما يلي: «فلقد تجمعت العقد الموروثة، عقد التعصب التي ندين بها ضد الإسلام ورجاله، وتراكمت خلال قرون سحيقة حتى أصبحت ضمن تركيبنا العضوي» (بن نبي، 1986، صفحة 43)

عاد العداء المسيحي اتجاه الشرق الاسلامي إلى الواجهة مع الدراسات الاستشراقية التي أشعلت فتيل الصراع من جديد، مؤكدة أن الغرب المسيحي لطالما كان محقا في موقفه العدائي تجاه الإسلام، كونه السبب الرئيسي فيما عرفه العالم من

مظاهر العنف والإرهاب والتطرف، وفيما يغرق فيه الشرق من جهل ورجعية وتخلف، وفي ذلك يعتبر إدوارد سعيد بأن الغرب يرى أن كل ما هو مستهجن من أنماط السلوك وأشكال الحياة الاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية يحمل بداخله جذورا إسلامية تغذيه وتحرفه عن المسار الصحيح، «فاليمين يرى أن الإسلام يمثل الهمجية، واليسار يرى أنه يمثل حكم القرون الوسطى، والوسط يرى أنه يمثل الغرابة الممجوجة» (سعيد، 2005، صفحة 37). ويعود ذلك إلى أن الخطابات الاستشراقية المتحاملة على الشرق وعلى الإسلام على وجه التحديد عملت على بث الكراهية في نفوس الغربيين اتجاه الإسلام باعتباره عدو الإنسانية وباعثا للفكر الإرهابي التطرفي، مجندة في ذلك كل ما من شأنه أن يخدم هذا الفكر الاستشراقي الحامل لخطاب الكراهية من وسائل الإعلام، وضروب الفن والأدب، إضافة لكون المستشرقين عملوا على صناعة الكراهية بين شعوب الشرق الإسلامي كالسنة والشيعة، وكذا إتاحة الفرصة للشرقيين لنقد العقل العربي والإسلامي، من منطلق ما اكتسبه بعض المفكرين العرب والمسلمين من أفكار عمل الفكر الاستشراقي على تعزيزها وتزكيتها في نفوس الشرقيين ضاربين بذلك وحدة العرب والمسلمين مزعزعين للاستقرار الشرقي، هو الأمر الذي يجعل أي تدخل أجنبي سواء كان سياسيا أو عسكريا أمرا هينا.

عمل المستشرقون على تأليف الكتب والاهتمام بمجال الكتابة حول الإسلام، لأنه السبيل إلى وحدة الشرق ومصدر قوته، وبذلك فإن فرض الهيمنة على الشرق يجعل من الضروري ضرب الإسلام وإضعاف العقيدة والتشكيك في صحتها، ولتحقيق ذلك انكب المستشرقون على تحريف النصوص المنقولة عن الإسلام والمسلمين، وإلقاء المحاضرات والخطب عن الإسلام، حتى في الدول المسلمة كدمشق، وبغداد، والقاهرة، ولاهور، والرباط... الخ، وهو ما كان يلقى الكثير من النقد، إضافة إلى عملهم على إصدار المجلات والدوريات التي تتمحور حول الإسلام وتاريخه ودوله، وفي ذلك تم إنشاء الموسوعة (دائرة المعارف الإسلامية)، وإصدارها بعدة لغات حتى أنه تم فيما بعد ترجمتها للعربية، وهي موسوعة حملت الكثير من الأباطيل عن الإسلام كون من ألفها هم أشد المستشرقين عداء للإسلام. (الخطيب، 1979، الصفحات 206-209)

لقد كانت لمحاولات المستشرقين وجهودهم لتشويه الإسلام وإضعاف قوته، دور كبير في بلورة الرأي العام الغربي حول حقيقة الإسلام، وزرع النفور والتخوف من كل ما هو إسلامي، والحقيقة أن هذه الجهود لازالت مستمرة، ولازالت منطلقا وسببا وجيها يبرر كل ما يكنه الغرب من عداء اتجاه الشرق والإسلام.

3.3. إعادة تشكيل الشرق:

يرى إدوارد سعيد أن المستشرقين يسعون من خلال الخطابات الاستشراقية إلى إعادة تشكيل الشرق، ليس تشكيلا يظهر جوهر الشرق وحقيقته، وإنما تشكيل يخدم السلطة الغربية ويسهل نفوذها إلى الشرق، من خلال خلق معرفة جديدة حول الشرق تتمركز في يد السلطة الغربية التي تشرف على عملية خلق شرق جديد يتماشى مع ما يبتغيه الغرب المهيمن، وبالتالي «الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق- التعامل معه بإصدار تقريرات حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه، وحكمه» (سعيد، 2010، صفحة 39) فالاستشراق الذي تشرف عليه السلطة فرض حدودا تعيق التواصل بين الشرق والغرب وتمنع رؤية الحقيقة، حيث أضحى كل غربي يسعى للحديث عن الشرق أو التفكير فيه أو دراسته يأخذ في دراسته بهذه الحدود المفروضة على الفكر، وأن يستحضر تأثير الخطاب الاستشراقي. (سعيد، 2010، صفحة 39)

وإن كان المنطوق الغربي يعلن في صراحة أن الاستشراق ما هو إلا حركة علمية تستهدف الإحاطة بالمكونات الحضارية للشرق من لغة ودين وعلوم وآداب ونقلها للمتلقي الغربي بصدق وموضوعية، بهدف إتاحة الفرص للاحتكاك الحضاري والتعاون، غير أن اللامنطوق الغربي والذي عمل العديد من المفكرين والناقدين على فضحه، والذي يمثل جوهر الحركة الاستشراقية هو الذي يجعل الشرق يعرف نفسه من خلال تعريف الغرب له باعتبار هذا الأخير الجدير بالفهم والمعرفة لان العقلية العربية أو الشرقية عامة هي عقلية قائمة على العاطفة والوجدان وبالتالي فهي تفتقر للعقلانية ما يجعلها قاصرة عن فهم ذاتها بذاتها. (بوعرفة، 2019)

لقد عمل الاستشراق على صياغة الاحكام حول الشرق، كالقول مثلا أن الشرقيين لا يملكون الأهلية الكافية لتسيير أمورهم، ولا لتمثيل أنفسهم، ولا

الاستفادة من ثرواتهم واستغلالها لبناء مستقبلهم، أو أن الشرقيين يعيشون في الصحراء يركبون الابل، يستضيؤون بالنار ولا يدركون معالم الحضارة التي عرفتها أوروبا، أما عن صفاتهم فهم يميلون إلى العنف وإراقة الدماء والزنا، بعيدون عن العلم والأخلاق، ونظرا لذلك وجد الغرب مشروعية فرض الهيمنة على الشرق وإدارة أموره وإلحاقه بركب الحضارة، والناظر إلى غاية كهذه يجد فيها غاية حضارية خادمة للشرق، غير أن ما يخفى على الكثير من المتلقين للاستشراق الغربي هو أن صورة الشرق في الكتابات الاستشراقية لم تكن سوى منتجا من منتجات العقل الغربي، تجعل الشرق التاريخي مختلفا كليا في جوهره عن الشرق في المتخيل الغربي .

4. موقف إدوارد سعيد من الخطاب الاستشراقي الداعم للاستعمار السياسي:

لم يكن لدى إدوارد سعيد نظرة تفاؤلية حول مصير العلاقات بين الشرق والغرب بل غالبا ما حمل تصورا عن إمكانية ازدياد الهوة بين الشرق والغرب وتأزم العلاقات أكثر، ولعل السبب في ذلك حسبه يعود إلى عدم امتلاك المعرفة الكافية والحقيقية عن الآخر المقابل، فغالبا ما يوصف الشرقي -المسلم خاصة -في كتابات المستشرقين اللاموضوعيين بأنه شخص يغرق في الرجعية والتخلف ولا يدرك معالم الحضارة، يتصف بكونه عدواني متطرف يرفض الاختلاف ويتشبث بفكر جامد وظلامي، وهو ما ناقشه سعيد عنه في حوار أجري معه سنة 1996 وفيه يقول: «أعتقد أن الوضع يزداد سوءا يوما بعد آخر. ويمكن أن أقول بأنه لا يكاد يوجد أمريكي شمالي واحد يعرف العالم الإسلامي. فهذا العالم هو بالنسبة له بعيد، وصحراوي. وفيه عدد كبير من الخرفان، والإبل، وأناس بسكاكين بين أسنانهم يقومون بأعمال إرهابية» (المصباحي، 2016)، ويرجع إدوارد سعيد ذلك ليس لقصور المعرفة لدى الإنسان الغربي في وعيه بحقيقة الشرق، بل يعود في الأساس إلى الكتابات الاستشراقية المظللة، وإلى مختلف الوسائل التي عمد من خلالها الغرب إلى تشويه صورة الشرق والإسلام سواء بالاستعانة بوسائل الاعلام أو بالأعمال الفنية والأدبية التي تعرض العلاقة المتوترة بين الذات الغربية والشرقية.

وإن كان ما يهمنا هنا هو بيان دور الاستشراق في انحراف بوصلة الحقيقة لأغراض استعمارية غربية، إلا أنه وفي المقابل يتحدث إدوارد سعيد عن قصور المعرفة الشرقية بحقيقة الذات الغربية، وهو الأمر الذي يجعل الاستغراب كعلم مقابل للاستشراق، يستهدف الغرب بالدراسة يقع في ذات المآزق التي وقع فيها الاستشراق من ذاتية، وعدم تحري الدقة والتعميم المجحف، ففي ذات الحوار السابق يضيف سعيد قائلا: «من ناحية أخرى ينظر المسلمون إلى الأمريكيين وكأنهم مهووسون بالجنس، ولهم أقدام ضخمة، ويبالغون في الأكل» (المصباحي، 2016)، ويقودنا ذلك إلى الإقرار بعدم ذاتية إدوارد سعيد في نقده للاستشراق، كونه يرى أن الاستغراب لم يسلم من بعض الأخطاء التي تعمدها المستشرقون.

لكن هذا الموقف الذي تبناه إدوارد سعيد من العلاقة بين الشرق والغرب لم يمنعه من مواصلة الجهود لتقليص الهوة بين الحضارتين والعمل على تحسين العلاقات بهدف تحقيق السلام العالمي. حيث يعتبر أن الشرق والغرب بينهما علاقة قوية حتى وإن كانت مبنية على الاختلاف والصراع في الغالب، ويعود هذا التقارب أو كما يسميه سعيد "التلاصق" بين الشرق والغرب، إلى أنّ الغرب قد اتخذ لنفسه مستعمرات كانت في الغالب في دول الشرق، ما جعل الشرق عنصرا فاعلا في بناء حضارة الغرب ولغاته، وبالتالي أصبح الشرق بذلك منافسا حضاريا للغرب، وصورتَه المقابلة وصانعَ شخصيته وكيانه الثقافي، وهنا يعتبر إدوارد سعيد أن الفضل يعود للشرق فيما وصل له الغرب من تطور حضاري ومادي، معتبرا أن الشرق جزء من التجربة الحضارية الغربية. (سعيد، 2010، صفحة 37) وبذلك خصص سعيد جزءا كبيرا من دراساته في تحليل العلاقة بين الشرق والغرب وتسليط الضوء على الدور الكبير الذي لعبه الاستشراق في تحديد طبيعة العلاقة بين الحضارتين، وكان ذلك بشكل واضح في ثلاثيته الشهيرة: "الاستشراق، تغطية الإسلام، الثقافة والامبريالية" فخصص كتاب الاستشراق لتحليل منهج المستشرقين والكشف عن العلاقة بين السلطة والمعرفة، اكتسبت منها الأنا الغربية نوعا من الفوقية والمركزية باتخاذ الشرق مقابلا لها ترى وجودها من خلاله وهو الهدف الذي عمل سعيد على مناقشته في ذات الكتاب مصرحا بذلك في قوله: «كذلك يحاول "هذا الكتاب" أن يظهر أن

الثقافة الغربية اكتسبت المزيد من القوة و"وضوح" الهوية بوضع نفسها موضع التضاد مع الشرق باعتباره ذاتا بديلة أو حتى سرية تحترضية» (سعيد، 2010، صفحة 39)، كما سعى سعيد إلى تفكيك المركزية الغربية وعقدة التفوق التي لازمت الفكر الغربي في نظرته للآخر الشرقي، معتبرا أن الدراسات الاستشراقية عملت على تكريس هذه الفكرة في أذهان المتلقين في الغرب، وذلك كون المستشرقين يؤسسون خطابهم الاستشراقي على التفوق الغربي باعتباره نقطة الانطلاق ومحور العلاقات بين الشرق والغرب. غير أنه يضيف أنه من الممكن أن يشكل مفكر ما -يتسم بالاستقلالية والشك- نقطة تحول في هذه الحقيقة، ويغير وجهات النظر حول التفوق الأوروبي والمركزية الغربية، ويلفت النظر إلى ضرورة الاعتراف بالفضل الكبير للشرق في تكوين العظمة الأوروبية. (سعيد، 2010، صفحة 42)

يحيلنا النقد الذي استهدف به سعيد الخطاب الاستشراقي القائم على منهج متحايل مخطط له، يظهر العلاقة بين السلطة والمعرفة، إلى القول بأنه متى كانت المعرفة في يد السلطة فإنها تؤول إلى معرفة الغايات والمصالح، فالسلطة لا تنتج معرفة من أجل المعرفة، وهو ما يعبر عنه الاستشراق الذي عكس معرفة السلطة، كون ما أنتجه المستشرقون لا يخرج عن نطاق التمثلات التي غايتها تشويه الخصم، تشويها يضيف للأنا الغربية شيئا من وضوح الفهم حول ذاتها والاعتراف بمركزيتها.

5. خاتمة:

يقودنا البحث في هذا الموضوع إلى جملة من النتائج التي منها ما يخص الاستشراق ودوره في تحديد العلاقة بين الشرق والغرب، ومنها ما يخص إدوارد سعيد في مهمته كمثقف وناقد للخطاب الاستشراقي المظلل. فأما ما يخص منها العلاقة بين الشرق والغرب من منطلق استشراقي فيمكن تلخيصه فيما يلي:

- إن غايات الاستشراق كانت متداخلة فيما بينها، خادمة لغرضه السياسي الاستعماري، فالهدف الديني عمل على إضعاف وحدة المسلمين، والهدف العلمي زود الدول الاستعمارية بكل ما يسهل نفوذها للشرق، أما الهدف الاقتصادي فكان دافعا أساسيا لفرض الهيمنة وبسط النفوذ.

- حالة الصدام والصراع بين الشرق والغرب تحمل في طياتها حتمية استمرار التاريخ وتعتبر ضرورة لتحريك عجلته بالعودة إلى المنطق الجدلي لهيجل.
- أي تناغم أو انصهار للغرب والشرق في بوتقة واحدة هو نهاية للتاريخ الذي يسعى الغرب أن يكون خاتمته وفق نبوءة فرانسيس فوكوياما، فالعقلية الغربية المتجسدة في المؤسسات الامبريالية لا ترضى بالثنائية شرق غرب بل غايتها استمرار الأحادية الغربية، والاستشراق سلاحها لتحقيق ذلك بمشروعية.
- الاستشراق كعلم وتخصص أكاديمي لم يكن سوى واجهة فكرية لإيديولوجيا إمبريالية سلطوية، تنظر إلى الآخر بعين الاستعلاء الذي يبرر فرض هيمنتها عليه.

أما عن نتائج الدراسة في صلتها بمهمة المثقف والناقد إدوارد سعيد فهي كما يلي:

- موقف سعيد من العلاقة بين الشرق والغرب ومن الفوقية الغربية ليس موقفا مبنيا عن انتماء، بل هو موقف مثقف يحمل هما معرفيا، وناقد تؤرقه قضايا عصره، وباحث ملم بشروط البحث العلمي من موضوعية وتحري الدقة، وهو الذي قضى سنوات في دراسة الاستشراق ومسائله والكشف عن خفاياه.
- غاية سعيد من نقد الاستشراق والعمل على تفكيك خطاباته وبيان أوجه الزيف والبطلان فيها ليس الهدف منه نقد الاستشراق كعلم بل نقد منهجه المتحايل الذي يخرج هذا العلم عن نطاق الموضوعية والمصداقية ويجعله إيديولوجيًا هادفًا تسيره يد السلطة للمؤسسة الامبريالية.
- اهتمام سعيد بالاستشراق والعمل على تحليل خطاباته، كان نتيجة وعيه بالدور الذي يلعبه الاستشراق في تأزم العلاقات بين الشرق والغرب، وفي كونه أداة يستمد منها الاستعمار السياسي الغربي شرعيته.

6. قائمة المراجع:

إدوارد سعيد. (1996). تعقيبات على الاستشراق (ط 1). (تر:صبحي حديدي) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

إدوارد سعيد. (2005). تغطية الاسلام. (محمد عناني، المحرر) القاهرة: دار رؤية.

إدوارد سعيد. (2010). الإستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء. (تر:كمال أبو ديب) بيروت، لبنان: مؤسسة الأبحاث العربية.

حسن أحمد الهادي. (2024). الغرب يشرق، التلاقح بين الاستشراق والاستعمار. دراسات استشراقية، 38، الصفحات 01-04.

حسونة المصباحي. (12 10, 2016). إدوارد سعيد بين الشرق والغرب. تاريخ الاسترداد 20 07, 2024، من إيلاف: https://elaph.com/Web/opinion/2016/10/1113912.html

سالم الحاج ساسي. (بلا تاريخ). نقد الخطاب الاستشراقي، ج1.

عبد العالي احمامو. (2018). الاستشراق .. الأهداف والغايات. دراسات استشراقية، 14، الصفحات 141- 162.

عبد القادر بوعرفة. (28 02, 2019). "الاستشراق".. ماذا تعرف عن الكتاب الأشهر لإدوارد سعيد؟ تاريخ الاسترداد 20 07, 2024، من الجزيرة نت: https://aja.me/7bkaz

عبد الكريم عثمان. (1992). معالم الثقافة الاسلامية (ط 16). بيروت: مؤسسة الرسالة.

عمر عودة الخطيب. (1979). لمحات في الثقافة الاسلامية (ط 3). بيروت: مؤسسة الرسالة.

مالك بن نبي. (1986). وجهة العالم الاسلامي (ط 5). (تر:عبد الصبور شاهين) دار الفكر.

محمد عبد الله الشرقاوي. (بلا تاريخ). الاستشراق في الفكر الاسلامي المعاصر. القاهرة: كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

محمود حمدي زقزوق. (1989). الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري (ط 2). القاهرة: دار المنار.

مصطفى خالدي، وعمر فروخ. (1953). التبشير والاستعمار في البلاد العربية. بيروت: منشورات المكتبة العصرية.

يوهان فوك. (2001). تاريخ حركة الاستشراق: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين (الطبعة 2). (تر:عمر لطفي العالم،) بيروت، لبنان: دار المدار الاسلامي.